الأدب فى سير أعلامه :

٦ ـ تولســـتوى

[قة من القمم الشوامخ فى أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

طالب فاشـل

لما بلغ ليو السادسة عشرة من عمره أراد أن يلتحق بجامعة قازان ، واختار قسم اللغات الشرقية إذ كانت بغيته أن يكون فى غده من رجال السياسة؛ وكان لابد لمن يلتحق بهذا القسم أن يجتاز امتحاناً فى اللغات العربية والتتارية والتركية ، مضافا إليها بعض اللغات الغربية وبعض فروع المعرفة العامة ، ونجح الفتى فى بعض مواد هذا الامتحان وأخفق فى بعض ؛ وقد حصل فى اللغة الفرنسية على أعلى درجة ، وتفوق فى الألمانية والعربية والتركية ، وكان أقل من ذلك جودة فى المنطق والرياضة واللغة الإنجليزية والأدب الروسى ؛ أما التاريخ والجغرافيا فقد كان نصيبه فيهما الرسوب إلى حد بعيد ، وقد ذكر عن نفسه أنه سئل أن يعدد الموانى الفرنسية فما استطاع أن يذكر منها واحدة ؛ ثم أعيد امتحانه بعد أشهر فيما رسب فيه فنجح وقبلته الجامعة منتسباً ...

وجلس بين صفوف الطلاب ، منصرفاً أكثر وقته عما يقول الاساتذة ، يقلب عينيه فى أقرانه حيناً فيعجبه منظر هذا وتضحكه هيئة ذاك ؛ وينظر إلى الأستاذ حينا فيسخر مما يقول أو يرسم له صورة هزلية ؛ ثم ينشغل عما حوله حينا كأنما أخذته عن نفسه حال فما يفيق إلا على تهوش الطلاب ينطلقون من درسهم ، فيسرع فى انطلاقه منه لأنه ضائق به صدره ...

وكيف يجعل الفتى للدرس باله وإنه لفى شغل تارة بما يطوف برأسه من أحلام الشباب وأوهامه ، وآونة بما يهبط على خاطره من أفكار منها ما يتصل بالدين ومنها ما يتصل بالحياة ...

أما عن الشباب وأحلامه فقد كان له فى قازان مجال أى مجال للهو واللعب ، وألفى الفتى نفسه وقد أخذ حب اللهو عليه كل مذاهبه وطالعته مفاتن الحياة ومسراتها من جميع أقطاره ، وهو فتى متوثب الشباب تمتلج فى نفسه عواطف شتى من الحب والطموح والشهوة وكل ما هو سبيل من هذا ؛ ولذلك ألقى بنفسه فى متع الحياة صالحها وفاسدها وأرخى العنان لشهواته ونزواته ، حتى لينسى فى تلك المسرات كل ما عنى به نفسه من قبل من رغبة فى الكمال ...

والكمال عنده يومذاك أن يلبس أحسن الثياب وأجلها وأن يفتن فى اختيار الألوان حتى يحمل الناس على الاعجاب بذوقه ، ولعل عدم رضائه عن خلقته قد أدى به إلى كثير من الإسراف فى هذا السبيل ؛ ثم إنه يلعب الورق ويشرب الخمر فى جماعات من لداته ؛ ويدخن الطباق فى غليون جميل يحرص أن يكون ثمنه أغلى ثمن ، ويتطيب ويمشط شعره ويدهنه بما يكسبه اللمعان ، ويتكلم الفرنسية فى أناقة متكلفة ؛ وإنه ليشهد كل حفلة يقيمها أرستقراط المدينة وذلك بدعوة من أصحابها فما يفوت أحداً أن يدعوه وقد أمسى شخصية من شخصيات المجتمع ، وإنه ليبذل قصارى جهده أن يلفت للأنظار إليه ، ولكم يهجه أن يتحقق له ما يريد وبخاصة إذا ظفر بنظرات الأوانس ، ولكم يؤلمه ويكدر عليه عيشه أن يصادف من أحد عدم الاكتراث له أو الفتور فى تحيته ؛ وإنه ليندس بين كل جماعة فيتحدث ويعرض آراءه ويخالف ويعارض ليبرهن على أصالته وقوة شخصيته .

وإنه ليغشى دور اللهو جميعاً ، فيتكلف أكثر ما يستطيع من مظهر أرستقراطى فى حديثه وتحياته ومشيته وجلسته ؛ ويدلى بآرائه فيما يشهد من تمثيل أو يسمع من موسيقى ، ويأخذ بقسط من الرقص ، وإن كان لا يحسنه كما يجب أن يحسنه .

وإنه ليحسب أكثر من مرة أنه نضو حب ، فيخيل إليه

تارة أنه أسير هوى لشقيقة صاحبه ديا كوف ، وتحدثه نفسه أنها خير ما يختار من زوجة ؛ ثم إذا به يتجه بخياله وقلبه إلى صديقة لأخته مارى إذ يراها وهى طالبة فى معهد عال تجمع إلى جمال الخلقة حسن الخلق وسعة الثقافة ؛ ولكنه لا يلبث أن يرى نفسه وقد علق قلبه بفتاة تزوجت حديثاً ، ولكنه يؤثر أن يموت بين يديها على أن يكاشفها بما يحس نحوها من حب ... ولن تزال أحلام الحب تطوف بقلبه شأنه فى ذلك شأن غيره من الشباب ، ولا تزال الرغبة فى الزواج تلح على نفسه وتوحى إليه كثيراً من الأمانى العذاب ، ولكنه لا يستقر على رأى ، وقصاراه أن يحلم بمن يتوق إلى أن يحبها لتكون له زوجاً تجمع بين صدق العاطفة ورجاحة العقل وتحس نحوه مثلما يحسه نحوها وتفهمه كما يفهمها ، وأنى له أن يظفر بهذه الزوجة التى لا يجدها إلا فيما يحلم من حلم ؟

ولم يقتصر الفتى على الأحلام ، فقد كان طلب نساء يسعى إليهن ويسعين إليه ولا يتورع أن يتسلل إلى بيوت يتهامس الناس بأسمائها ويتغامزون بها ؛ ولن تخرج المرأة فى رأيه عن إحدى اثنتين ، فإما واحدة يلهو بها ويطفىء بها لهيب جسده ، وإما ثانية يحلم بين يديها أحلام الزواج والعفة ولا يستطيع خياله أن يتجه لحظة أمامها إلى معنى من معانى السوء ، ومن عجيب أمره أنه على تنبله بالشباب والمال وعلى حيويته وقوة بدنه كان خجولا شديد الاضطراب إذا وجد نفسه فى مجلس أوانس أو سيدات مهما بلغت ألفته لهن ، أو إذا تحدث إلى فتاة أو سيدة فما يزول عنه خجله أو يبارحه اضطرابه إلا بعد حين .

ومن كان يحيا حياة كهذه مطلق العنان مسرفا فى اللهو كان حقيقة أن يفشل فى طلب العلم ؛ ولذلك فشل تولستوى فشلا كبيراً ، على أنه يحاول أن يبرىء نفسه فيرد سبب إخفاقه إلى اضطغان أستاذ التاريخ الروسى عليه ، ويزعم أنه كان حسن الإلمام بهذه المادة ؛ كما يعلم أن هذا الأستاذ أسقطه كذلك فى اللغة الألمانية على الرغم من أنه يجيدها أكثر من أى طالب آخر فى قسمه بما لا تجوز معه المقارنة .

وترك تولستوى كلية اللغات الشرقية إلى كلية القانون ، ولكنه فى عامه الثانى بالجامعة لم يك أحسن حالا منه فى عامه الأول ، فقد ظل مسرفا فى لهوه لا يقف فيه عند حد ، يسهر أكثر لياليه حتى يسفر الصبح فى مجونه وفتونه ، وليث على هذه الحال حتى انتصف العام الدراسى أو جاوز المنتصف .

وكان فى الجامعة يتنبل بماله وثيابه ، يصل إليها على جواد جميل وحوله بعض الخدم ، ولا يجالس أو يصاحب إلا من يراه فى مثل طبقته ، ويترفع على من يراهم دونه ، ولذلك كان بغيضاً إلى هؤلاء ثقيلا عندهم ، قال أحدهم يصف شعوره نحوه « لقد كنت أبتعد عن الكونت ، ذلك الذى نفرنى من أول الأمر تظاهره بالجفاء كما نفرنى شعره القصير الخشن وما ينبعث من عينيه نصف المقفولتين من معنى يخز النفس ، وإنى لم ألق قط شاباً مثل ما لهذا الشاب من ذهاب بالنفس ورضاء عنها ، الأمر الذى يعد غريباً كما أنه لا يفهم ؛ وقلما كنت أقابل الكونت أول الأمر ، ذلك الذى على الرغم من شيء منظره وخجله قد اتخذ له رفقة ممن يدعون الأرستقراط ؛ وقلما عنى بأن يرد تحيتى كأنما يريد أن يشير بذلك إلى أننا أبعد من أن نتساوى حتى فى هذا المكان حيث أنه يأتى إليه فى عربة أو على ظهر جواد وآتى أنا راجلا » وذكر هذا الزميل مرة أخرى أنه تصادف أن حبس فى حجرة بالكلية هو وتولستوى بعض الوقت عقابا لهما على تقصير ، فرأى تولستوى فى يده كتاب تاريخ ، فقال إن التاريخ فى رأيه أتفه موضوع ، فما هو إلا مجموعة من الخرافات والتفاصيل العديمة الجدوى تتخللها طائفة من الأرقام وأسماء الأعلام ؛ وتطرق الحديث إلى الشعر فتهكم تولستوى وسخر من الشعر ؛ ثم تحدث عن التعليم الجامعى بوجه عام فسخر منه ما وسعته السخرية وسخر من تسمية الجامعة دير العلم إلى أن قال « ويحق لنا أن نتوقع أننا نترك هذا الدير رجلين نافعين مزودين بالمعرفة ، ولكن ما ذا عسى أن نحمله معنا من الجامعة حقاً ، وأى شيء نصلح له ولن من الناس نكون ضروريين ؟

هذا هو رأى زميله عنه ، ولكن الذين عرفوا تولستوى وقد نسى تكلفه يجدونه شخصاً غير هذا ، فهو ذكى الفؤاد محبب العشرة إلى رفقائه ، طيب القلب ، واسع الأفق متوثب الروح ، صادق الحماسة لما يعتقد أنه حق أو صواب .

وهو فى أثناء أجازته الصيفية فى ياسنايا ، ينسى ما كان منه فى المدينة من تكلف يبعد به عن طبيعته ، ولو أن أحداً من خلانه رآه هناك لأخذه العجب من أن يكون هذا هو الطالب الارستقراطى

الذى عرفه فى الجامعة ؛ فهو هنا فى القرية يستحم فى النهر ويجلس تحت شجرة يطالع قصة فرنسية ، ويصيد السمك أو الطير ويعشى فى الغابة ما وسعه المشى وقد أطلق نفسه على سجيتها ، فلا أناقة فى ملبس ولا تكلف فى مشية أو جلسة أو حديث ؛ وإنه لينام فى شرفة ويأكل حيث يحب ويلبس ما يلائم لبسه الحر فحسب ؛ حتى إذا عاد إلى المدينة رجع إلى تكلفه وأرستقراطيته .

ونجده بعد إسرافه فى لهوه يثوب بعد منتصف العام الدراسى الثانى إلى شىء من الجد ؛ ويجد لذة فى دراسة القانون المقارن والقانون الجنائى وعقوبة الإعدام ، ويقبل على القراءة إقبالا شديداً حتى ليتجاوز المقرر كثيراً فى هذه الموضوعات ، ويأنس منه أستاذه هذا الإقبال فيكلفه أن يقارن بين كتاب منتسكيو «روح القوانين» وبين قانون كاترين الثانية ، فيجد الفتى فى هذه المقارنة متعة عظيمة حتى لميل إلى ترك الجامعة كى يستطيع أن يقرأ ما يحب أن يقرأ فى غير قيد بما يتطلب المنهاج ، فإنه إذا أقبل على قراءة شىء أحبه لا يحب أن ينصرف عنه إلى غيره حتى يستوعبه ويستوفى منه ما يريد . ويخرج الفتى من مقارنته بين الكتابين بأن كاترين فى كتابها قد خلطت آراء منتسكيو الحرة باستبدادها وغرورها ، وأن هذا الكتاب قد أجدى على كاترين من الصيت أكثر مما أجدى على روسيا من الخير ...

وفى شهر مارس من سنة ١٨٤٧ يصيبه المرض ويلح على بدنه القوى فيحمل إلى مستشفى يقضى به أياماً ؛ وهناك يبدأ الفتى كتابة يومياته فتكون هذه اليوميات من أهم مصادر تاريخ حياته ، فلقد دأب على كتابتها أكثر أيام عمره ؛ ولم ينقطع عنها إلا بضع سنين ثم عاد إليها .

وكانت أول صفحة منها بتاريخ اليوم السابع عشر من ذلك الشهر ومما جاء فيها قوله : « ليس يصحبنى خادم هنا ولا يساعدنى أحد ، وعلى ذلك فلن يؤثر مؤثر خارجى فى ذاكرتى أو حكمى على الأشياء ، ويجب تبعاً لذلك أن يزداد نشاطى العقلى ... وإن أهم ما كسبته من ذلك هو أن أرى فى وضوح أن تلك الحياة المضطربة التى يعزوها الناس عرفاً إلى الشباب إنما مردها فى الحق إلى فساد روحى ميكر ؛ إن من يعيش فى جماعة يجد فى العزلة من الفائدة له مثلما يجده منها فى الجماعة من كان يعيش فى عزلة ؛ وما على المرء إلا أن ينسحب من الجماعة وينطوى على نفسه ليرى كيف يطرح عقله ذلك المنظار الذى كان يرى خلاله كل شىء حتى ذلك الوقت فى ضوء مهوش ... ولأن يكتب المرء عشرة مجلدات فى الفلسفة أهون عليه من أن يحقق فكرة واحدة تحقيقاً عملياً » .

وفى منتصف أبريل من تلك السنة كتب فى يومياته يقول : « لقد فشلت منذ قريب فى أن أجعل سلوكى كما أريد ، وكان مرد ذلك بادئ الرأى إلى أننى تركت المستشفى ، ثم بعد ذلك إلى من أجدنى أعود إلى مخالطتهم من رفقة يوماً بعد يوم ؛ وأختتم ذلك بأنه ينبغى أن يقودنى تغيير المكان إلى أن أفكر فى جد كيف تؤثر فىّ الظروف الخارجية كلما تجددت الشروط والأوضاع » .

ويتفكر فى مستقبله فيعاوده ما كان يطمح إليه من كمال على الرغم مما أسرف فيه من عبث ولهو فيقول : « إنى أجدنى دائماً بحيث يطالعنى هذا السؤال : ما الغرض من حياة الإنسان ؟ وبغض النظر عما بلغته بطول تفكيرى من نتائج وعما أعده فى رأيى منبع الحياة ؛ فإنى ما أزال أصل إلى خاتمة لا تتغير ومؤداها أن الغرض من الوجود الإنسانى إنما هو أن نبذل أكبر عون نستطيعه فى سبيل أن يرقى كل شىء حى رقياً عالياً عاماً ؛ وإنى لو لم أجد غرضاً لحياتى لكنت أشقى بنى الفناء على أن يكون غرضاً نافعاً عاماً ... وعلى ذلك فيجب أن تكون حياتى منذ اليوم كفاحاً دائباً نشطاً فى سبيل تحقيق هذا الغرض الذى ليس لى غرض سواه » .

ويعود الفتى إلى اعتزامه وما يقطعه على نفسه من مواثيق فيذكر ما سوف يأخذ به نفسه من ألوان الجد فى عامه القادمين بالقرية ، فسيدرس القانون كله ليتهيأ للامتحان النهائى للجامعة وسيدرس الطب العملى وقسطاً من ناحيته النظرية واللغات الفرنسية والروسية والألمانية والانجليزية والطليانية واللاتينية ، والزراعة النظرية والعملية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم الطبيعية ، وسيدون ما يعن له من ملاحظات وسيبلغ درجة الكمال فى الفن والموسيقى ، وسيكتب المقالات فى شتى المواضيع التى يدرسها إلى غير ذلك من ألوان الجد والدأب ...

ثم إنه يقطع على نفسه عهداً أن ينجز ما جمع عزمه عليه مهما

تكن العقبات وأن ينجزه على خير وجه وألا يرجع إلى الكتب فيما نسى من أمر بل يعمل على أن يسترده من ذاكرته ؛ وأن يحرص على أن يبذل عقله أقصى ما فى وسعه من طاقة وأن يجهر بقراءته وتفكيره ، وألا يخجل من أن يصارح من يقطعون عليه عمله بأنهم يعوقونه عنه ؛ وليدعهم أول الأمر يشمرون بذلك فإن لم يفهموا فليصارحهم به فى شىء من الاعتذار .

وحق للمرء أن يعجب من هذا الذى يعتزمه الفتى بعد ما كان من لعبه وبطالته ، ولعل إسرافه على نفسه هو الذى يوحى إليه بما عسى أن ينسيه ذلك العبث ويعوضه عما فاته من جد ؛ وفيم العجب وتلك حال من حالات الشباب ، والشباب يتخيل أنه قادر على كل شىء فلننظر ماذا أنجز الفتى من هذا الذى جمع العزم عليه .

لم يلبث الفتى أن ترك الجامعة دون أن يحصل على شهادة ما ؛ ففى سنة ١٨٤٦ خرج أخوه نيقولا من الجامعة والتحق بالجيش ، وعاش ليو مع أخويه الباقيين فى بيت استأجروه وقد تركوا بيت عمتهم فلا رقيب عليهم ؛ وبعد أشهر قليلة قسمت ثروة أبيهم بينهم فكانت ياسنايا بوليانا من نصيب ليو ، مضافاً إليها أربع ضياع أخرى تبلغ اربعمائة وخمسة آلاف من الأفدنة ، كما كان من نصيبه نحو خمسين وثلثمائة من الفلاحين الذكور ومن ورائهم أسرهم ؛ وفى يناير سنة ١٨٤٦ يحس ليو بكثير من الضيق بعد أن بارح أخوه الجامعة كما يسأم حياة المدنية وملاهيها وغرورها ، وحياة الجامعة وقيودها والامتحانات وسخفها ، فيكتب إلى إدارة الجامعة لتستبعد اسمه من سجلاتها معتذراً بسوء صحته وبأمور تتصل بمطالب أسرته ؛ وينطلق من الجامعة إلى غير عودة ، فهل هو فاعل فى غده ما تخيله فى قازان من ضروب المجد ؟

(يتبع)

الخيف

جامعة الدول العربية

الأمانة العامة

جائزتا جامعة الدول العربية للمؤلفين

١ — الموضوعان المقترحان لنيل جائزة الجامعة العربية هما :

ا — تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامى إلى خروج العرب منها وما يتصل بذلك من الحوادث فى بلاد المغرب

ب — تاريخ الأمة العربية (العراق — الشام — مصر والسودان — بلاد المغرب — جزيرة العرب) من سقوط بغداد إلى أول القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى)

٢ — يكتب الكتاب بلغة عربية صحيحة كتابة علمية لا عاطفية إنشائية فى مستوى الجمهور المثقف

٣ — فى عرض الموضوع تذكر مصادر البحث فى حواشى الصفحات مع ذكر أرقامها وتذكر النصوص إذا دعت الحاجة

٤ — يعنى فى الكتاب بتاريخ الأمة والشعب والحضارة ولا يقتصر على تاريخ الأشخاص والحروب

٥ — على المؤلف أن يطلع على المصادر الهامة المكتوبة فى الموضوع بلغة أجنبية ويشير إليها

٦ — لا يجوز تقديم كتاب فى أحد الموضوعين سبق نشره

٧ — لا تقل صفحات الكتاب عن (٥٠٠) صفحة من القطع المتوسط

٨ — يزود الكتاب بالخرط التى يحتاج إليها

٩ — يقبل الكتاب الذى اشترك فى تأليفه أكثر من مؤلف

١٠ — الجائزتان كل منهما (٥٠٠) جنيه

١١ — يحق لكل عربى أن يشترك فى المسابقة أيا كان قطره

١٢ — إذا قبلت لجنة التحكيم كتابين متقاربين فى الجودة فى أحد الموضوعين وزعت الجائزة بينهما ولا يجوز أن تقبل أكثر من كتابين

١٣ — يكون الكتاب ملكا للمؤلف بشرط أن يطبعه وينشره فى ظرف سنة من قبول لجنة التحكيم فإذا لم يطبعه فى هذه المدة كان للجامعة أن تطبعه

١٤ — آخر موعد لتقديم الكتاب أول مايو سنة ١٩٤٨ .

٦٨٥٨